

توظيف المترجمين الجزائريين في توسع الاحتلال الفرنسي في أفريقيا

الدكتور محمد الصالح بكوش
قسم الترجمة - جامعة الجزائر

ملخص

اقتصر الفرنسيون قريبا على توظيف المترجمين الجزائريين في الاستكشافات في البلدان الواقعة جنوب الصحراء كي يتمكنوا من السيطرة عليها تجاريا وسياسيا وعسكريا. واستفادوا من مؤهلاتهم في الجانبين اللغوي والعقدي، بحيث قاموا بتضليل السكان وتجسسوا عليهم وأبرموا معهم المعاهدات والاتفاقات لصالح فرنسا لأنهم كانوا يتقنون فيهم بصفاتهم مسلمين. وقّمت الفرنسيون بعدة بعثات استكشافية ورافقهم فيها العديد من المترجمين الجزائريين، بل قام بعض المترجمين برحلة خاصة، أمثال إسماعيل بوضربة ومسعود الجباري الذي روج لرحلته عن طريق التقارير والمحاضرات والمقالات والأحاديث والتأليف.

كلمات مفتاحية:

مترجمون جزائريون مسلمون - بعثات استكشافية - بلدان جنوب الصحراء - تجسس - معاهدات واتفاقات.

مقدمة

لم يكتف الفرنسيون باستعمال المترجمين داخل الجزائر قبل شنّ الحملة ضدها وبعد احتلالها، بل وظفهم خارجها عند احتلال كل من تونس والمغرب وبعد السيطرة عليهما، وأثناء توسع الاحتلال الفرنسي في أفريقيا جنوب الصحراء.

ويبدو أنّ إنشاء قسم تجاري في مدرسة الجزائر سنة 1908 كان يهدف إلى تكوين الجزائريين وتوظيفهم بعد ذلك في مجالات التجارة والسياسة في أفريقيا والمشرق العربي، واستفادة الفرنسيين من خبراتهم وعلاقاتهم في هذين المجالين، خاصة بالنسبة للشركات الفرنسية التجارية. وعلى الرغم من أنّ الجزائريين الذين عملوا في جيش الاحتلال الفرنسي كمترجمين يصعب حصرهم، فقد وجدنا منهم عددا

جُندوا في آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لخدمة البعثات الفرنسية خارج الجزائر، خاصة في المغرب الأقصى وأفريقيا.

أولاً: العلاقات بين الجزائر وأفريقيا

لقد كانت العلاقات الدينية والتجارية بين الجزائريين والأفارقة متينة قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومنذ ذلك الوقت تأثرت هذه العلاقات، لأنّ الفرنسيين أرادوا تسخير الدين والتجارة لأغراضهم التوسعية. وقد نجحوا في السيطرة على المناطق الشمالية لهذه التجارة، وبالتدرج سيطروا بواسطة رجال الدين والتجار، على المناطق الجنوبية منها. وغدت تلك الرقعة تمثل الشبكة التي ربط بها الفرنسيون شمال أفريقيا بغربها ووسطها. وقد احتاجوا في تلك الجهود إلى تعاون جزائري آخر، وهو تعاون العسكريين والمترجمين والمعلمين والقضاة. وبالإضافة إلى العمل العسكري المحض ظهر بين جنود الفرق الأهلية مترجمون كانوا يرافقون الضباط الفرنسيين في حملاتهم وتنقلاتهم واستكشافاتهم في أفريقيا حيث الثقافة العربية الإسلامية هي السائدة في النيجر والسنغال ومالي وتشاد وموريتانيا وغيرها. وقد تدعم جهاز المترجمين العسكريين بمجموعة من خريجي المدارس الرسمية الثلاث بعد 'فرنستها' في آخر القرن التاسع عشر، فأخرجت معلمين وقضاة وكذلك مترجمين التحقوا بمؤسسات مدنية في أفريقيا، مثل الإدارة والمدارس والمحاكم. مما جعل عددا من الجزائريين يشاركون في الحياة العامة بأفريقيا. وسنتناول أهم المترجمين الذين تمّ توظيفهم في البعثات وإبراز دورهم فيها.

إنّ الجزائريين الذين شاركوا في البعثات الفرنسية كانوا بصفة عامة يقومون بعمل يتصل بوظيفتهم في إدارة الاحتلال، سواء كانوا أصلا قضاة أو مترجمين أو عسكريين. وكان بعضهم يطمح إلى الحصول على ترقية أو وسام بعد إنجاز عمله الاستكشافي والعلمي. وعلى أية حال فإنّ العلاقات بين الجزائريين والأفارقة لم تكن دائما من خلال الفرنسيين فقط أو من أجل المصالح الفرنسية، فالعلاقات بين سكان بلدان المغرب والسودان القديم (وأفريقيا عموما) كانت قديمة. وقد تعثرت بعض الوقت بسبب الهيمنة الفرنسية على الطرق التجارية والعلاقات السياسية، ثم عادت في شكل هذه البعثات التي فتحت آفاقا جديدة للتعامل بين الأفارقة والجزائريين، وإن كان المستفيد المباشر في الظاهر هم الفرنسيين. وقد نفسر النجاح الذي أحرزه بعض المترجمين

الجزائريين المرافقين للبعثات الفرنسية تفسيرا يخدم العلاقات التجارية والإسلامية بين أفريقيا والجزائر. وقد نجح بوضربة وابن مشقان ورجم والجباري في إقامة هذه العلاقات بعد اندماجهم في الحياة الاجتماعية والايدولوجية لأهل المنطقة. وقد أقام ابن مشقان مثلا عدة سنوات بينهم، وأقام الجباري سنتين دون أن يعرف أحد عنه شيئا. وقد استفاد ابن مشقان من بعض المخطوطات أيضا واطلع على آثار زعماء نيجيريا وحوض البورنو. فجاء كتاب (نور الألباب) للشيخ عثمان دان فوديو، وكتاب (تزيين الورقات) لأخيه الشيخ عثمان. وقد وضع إسماعيل حامد مقدمة للكتاب الأول، ونشره سنة 1898، وكان قد أعجب بالأفكار الواردة في هذا الكتاب لدرجة أنه وجّه اللوم لمشايخ المؤسسة الدينية في الجزائر لأنها لم تنتج عملا في مستواه. وكان هذا العالم الأفريقي (فوديو) قد أبرز مكانة المرأة في الشريعة الإسلامية ودعا إلى تعليمها. ويبدو أن إسماعيل حامد وجد في هذا الرأي ردا مقحما على دعاة تحرير المرأة من الأوروبيين صادرا عن شيخ كان يعيش في أوائل القرن التاسع عشر. كما أن حامد قد علق على (تزيين الورقات) بآراء مشابهة¹.

ولا شك أن دور الجزائريين في أفريقيا وتأثيراتها عليهم قد ازدادت بمرور السنين، أي منذ الحرب العالمية الأولى وانتشار الجزائريين في المستعمرات الفرنسية في المغرب وموريطانيا والسنغال وغينيا والسودان الأوسط وأفريقيا الوسطى. ويهمننا هنا التطرق إلى البدايات الإيجابية عموما.

وتجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من مساهمة الجزائريين في إنجاح البعثات الفرنسية وإنجاز مشاريعها، فإن الاعتراف الفرنسي بجهودهم كان ضئيلا.

ثانيا: اختيار المترجمين

كان المترجمون في البعثات الفرنسية الأولى يختارون من

1Allan CHRISTELOW, Algerian Interpreters and the French Colonial Adventure in Sub-Saharan Africa, *THE MAGHREB REVIEW*, vol. 10, 4-6, 1985, p. 105.

يمكننا أن نتصور أن نشر (نور الألباب) في مدار القرن التاسع عشر بالجزائر بنصه العربي والفرنسي، قد ساهم في الحركة الإصلاحية في الجزائر التي أخذت تبرز على يد جماعة، منهم المجاوي وابن الموهوب وابن الخوجة وابن رجال وابن سماية. كما قيل إن الجباري قد لقي الحاج أحمد بيلو الزعيم التيجيري، وأسس جمعية دينية سرية.

أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص. 55.

أدلاء الصحراء، من رجال الشعانبة والتوارق، ولكنه ثبت للفرنسيين أنّ هؤلاء الأدلاء كانوا غير آمنين، إذ أنّ العديد من رجال البعثات نصبت لهم كمائن وقضوا نحبيهم فيها. واعتمدت البعثات أحيانا على الفرنسيين المتخرجين من مدرسة اللغات الشرقية أو من مدرسة الجزائر، غير أنّ هؤلاء كانوا أيضا غير قادرين على تحمل الصعاب، وفي أحيان كثيرة كان أهل الصحراء والسودان القديم يكتشفونهم على أنّهم جواسيس فيقتلونهم ومن معهم. ولذلك لجأ الفرنسيون ابتداء من عقد الثمانينيات من القرن التاسع عشر على العناصر العربية والإسلامية المتفقة والمتخرجة على أيديهم كما فعلوا مع بعثة إسماعيل بوضربة من قبل. وبحلول عهد التسعينيات أصبح في الجزائر عدد من خريجي المدارس الثلاث الرسمية ومدرسة بوزريعة لترشيح المعلمين وبعض الموظفين في السلك القضائي أو المعلمين الجزائريين، لهذا كان تجنيد المترجمين غالبا منهم. وكان الأفارقة، لاسيما في السودان القديم، لا يقبلون إلا من كان عربيا مسلما، ولذلك طلب أهالي يولا من المترجم أحمد بن مشقان أن يقسم لهم عشر مرات على المصحف أنّه مسلم. وامتاز المترجمون الجزائريون بالذكاء والثقافة المزدوجة والقدرة على تحمل الصعاب، وقد اعترف الفرنسيون غالبا بذلك. فقد كان عبد القادر البوسعادي وابن مشقان والجباري وغيرهم محل تقدير القادة الفرنسيين الذين جندوهم. ويبدو أنّ بعضهم، مثل ميلود بن عبد السلام، قد رفض حتى عرض النقود عليه من أجل الرحلة قائلا إنّّه يريد أن يخدم دون أجر، ولكن الفرنسيين لم يقابلوا هذا الكرم بالاعتراف بالجميل.

ثالثا: المترجمون الجزائريون في البعثات الفرنسية إلى أفريقيا

يبدو أنّ الصراع الألماني الفرنسي في أوروبا، خاصة على منطقة الألزاس ولوران، دفع الفرنسيين إلى التوجه إلى المشرق العربي وأفريقيا، منها المغرب وتونس والكونغو وغرب أفريقيا. وقد أسفرت اتفاقية مدريد (3 يوليو سنة 1880) على اتفاق اثني عشر بلدا حول تعاملات المغرب التجارية مع بلدان أوروبا. وبرغم معارضة إيطاليا، فإنّ ألمانيا أيدت احتلال فرنسا لتونس سنة 1881، ووقع البلدان اتفاقية في برلين (26 فبراير سنة 1885) تسمح لفرنسا بالتمتع بامتيازات تجارية وسياسية وعسكرية في حوض نهر الكونغو والسواحل الأفريقية. وعقدت اتفاقية أخرى بين البلدين في السنة نفسها (26 ديسمبر) سمحت لفرنسا بالسيطرة على جزء كبير من

سواحل غرب أفريقيا¹.

وجاءت بعد ذلك البعثات الفرنسية إلى تلك المناطق وكانت متعددة، ويرجع بعضها إلى أوائل احتلال الجزائر. فمنذ سنة 1839 تكوّنت لجنة علمية فرنسية ضمّت عدة علماء وضباط، للبحث في مختلف جوانب الحياة في الجزائر، ومنها العلاقات مع أفريقيا².

وتجدر الإشارة إلى أنّ المترجم إسماعيل بوضربة بعد أن شارك في حملات جيش الاحتلال ضد الأغواط وميزاب بين سنة 1852 وسنة 1854، وحملة نظرت سنة 1853، كلفه الحاكم العام راندون (Jacques Randon) سنة 1858 ببعثة استكشافية إلى غات وغدامس، وزار أيضا مراكش، وكتب رحلة باللغة الفرنسية طبعت سنة 1859. وغدت رحلته هذه مصدرا للمستكشفين الفرنسيين بعده منذ هنري ديفيري (Duveyrier) [1860]. وكان الفرنسيون مهتمين بغات وغدامس للسيطرة على التجارة مع أفريقيا وتحويلها إلى الجزائر بدل ليبيا (العثمانية). وكلفت الحكومة الفرنسية بوضربة سنة 1862-1863 بمرافقة الضابط الفرنسي ميرشي (Mircher) إلى غدامس أيضا. ونشر هذا الضابط عرضا عن تلك البعثة سنة 1863. ثم وضعت السلطات الفرنسية بوضربة تحت تصرف قائد القطاع الشرقي (قسنطينة) الذي كان يشرف على الجزء الشرقي من الصحراء.

وكان الشيخ عثمان بن الحاج البكري السوقي دليلا لإسماعيل بوضربة في رحلته إلى غات وكذلك دليل هنري ديفيري بعده³.

1 للاطلاع على تفاصيل هذه الاتفاقيات والتوسع في خبايا الصراع بين فرنسا وألمانيا حول أفريقيا، ينظر:

Le Prince de Bismarck et l'Expansion de la France en E.ROUARD de CARD 1918. ، Paris,Pedone &Gamber,Afrique

2 درس العقيد كاريت (Carette) الطرق التجارية التي سلكها العرب في الصحراء، كما ترجم بيربريجر (Berbrugger) وصف رحلة الدرعي والعياشي إلى الصحراء. وقبل ذلك كان أفيزار (Avizard) قد ترجم رحلة الأغواط في وصف الواحات والطرق والمحطات التجارية بين بلدان المغرب والسودان الغربي، بما في ذلك طمبكتو. وفي أوائل الخمسينيات من القرن التاسع عشر اجتاز بيربريجر الجريد التونسي إلى وادي سوف (سنة 1850) وحصل على نسخة من تاريخ العدواني وجمع معلومات حول الطرق التجارية ومعيشة الناس. ثم احتل الفرنسيون شمال الصحراء بما في ذلك ورقلة والأغواط ووادي ريغ ووادي سوف، ونصبوا الحماية على ميزاب. وقد مكّنهم ذلك من التحكم في طرق القوافل بين شمال الصحراء وجنوبها.

أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، ج5، مرجع سابق، صص.35-36.

3 كان الشيخ عثمان على صلة بالإنكليز أيضا، إذ رافق الضابط (القنصل) الاسكندر غوردن لانغ إلى غدامس وعين صالح سنتي 1866-1867، وتعلم منه كلمات إنكليزية. وقد اغتيل لانغ

كما رافق أحمد بن زرمة السوفي ديفيري دليلا ومترجما في رحلته سنة 1859-1860 التي شملت المنبوعة غربا وزويلة شرقا وبسكرة شمالا وغات جنوبا. ويبدو أن أحمد هذا قد قام بعدة بعثات في الصحراء وقتل في إحداها. كما قام المترجم مصطفى بونمان (الضابط في فرقة الفرسان) بعدة رحلات إلى منطقة التوارق ووصل غدامس أيضا، وكان ذلك قبل سنة 1867، تاريخ وفاته.

وقد نجح كرامبيل (Paul Crampel) في تجنيد مترجمين جزائريين باللغة العربية لبعثته أواخر سنة 1889، أحدهما هو ايشقأغ الغالي وكان من التوارق، أسره الفرنسيون سنة 1887 بدعوى أنه من أعداء فرنسا. وأخذ كرامبيل معه إلى باريس لينطلق ببعثته من هناك، ثم من داكار. وعندما وصلت البعثة إلى مدينة (صحا) حيث حكم محمد السنوسي الذي عينه رابح بن فضل الله على دار الكنتي، ترك كرامبيل مترجمه الغالي هناك، واتجه نحو الشمال مع مترجم جزائري آخر يدعى محمد بن السعيد مقبل (وكان طالبا في الطب، والراجح أنه من زواوة)، فوقعا في الكمين الذي ذهب ضحيته كرامبيل ومترجمه. وقد وجه الفرنسيون إصبع الاتهام بالخيانة إلى الغالي، ولكن تلك الواقعة كانت متوقعة نظرا لما حدث للمستكشفين قبل ذلك في الصحراء.

وأرسل الفرنسيون مترجما آخر للتجسس وهو قدور بن العربي المملوك فجمع المعلومات حول مناطق وڭاي وكانم وباجيرمي وبورنو، والاستفسار عن تقدم بعثة كرامبيل، لكنه توقف عند غدامس قادما من قابس (تونس) حيث اكتشف أمره¹.

وإثر بعثة لويس ميزون (Louis Mizon) سنة 1890 لربط منطقة باجيرمي بشمال أفريقيا، ترك ميزون المترجم أحمد بن مشقان خليفة عنه في منطقة البورنو على رأس فرقة من الجنود السنغاليين، لأن فرنسا استدعت ميزون على إثر احتجاج بريطانيا على المعاهدة التي أبرمها مع سلطان موري. وكان الفضل يعود إلى إيتيان (Eugène Etienne)، كاتب الدولة للمستعمرات، الذي جنّد أحمد بن مشقان لهذه البعثة رفقة مترجم آخر يدعى ميلود بن عبد السلام. وكان ميلود هذا من المترجمين الرسميين، والراجح أنه من خرجي إحدى المدارس

في طمبكتو. وقد حصل الإنكليز من الحاج عثمان على أوراقه وفيها أسرار رحلته عبر الصحراء. المرجع نفسه، ص. 59.

1 CHRISTELOW, Algerian Interpreters, op.cit., p. 102.

أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج 5، صص. 52.

الرسمية مما يفترض معرفته للغتين العربية والفرنسية. وكان قد جرح رفقة ميزون بعد اكتشافهما في منطقة البورنو. وحصل هذا المترجم على ميدالية عسكرية جزاء خدماته وتوفي في 27 ديسمبر سنة 1890، فواصل أحمد بن مشقان المهمة.

ولد أحمد بن مشقان بنواحي تيزي وزو سنة 1868. ويبدو أنه تعلم اللغة العربية في إحدى الزوايا المحلية، ودرس الفرنسية في إحدى المدارس التي بدأت تظهر بزواوة منذ حوالي سنة 1882. ثم التحق بمدرسة ترشيح المعلمين في بوزريعة، وغدا بعد ذلك مترجما عسكريا احتياطيا. وعندما جئده الفرنسيون لبعثة ميزون حاول إقناع التجار العرب في منطقة البورنو بتوقيع معاهدة تجارية مع الفرنسيين على أساس أنهم حلفاء للمسلمين، وأنه بناء على تلك المعاهدة يقدم الفرنسيون لهم الأسلحة ويدربون الجيش الذي كان يقوده الزبير ضد قوات رابح، وهي سياسة رجال الاحتلال الفرنسي المعتمدة على إحداث الشقاق بين الجماعات والأفراد، وتدعيم طرف ضد الطرف الآخر. وهكذا لازم ابن مشقان الزبير كمستشار له، ويبدو أنه قدم له السلاح وساعده على تدريب جيشه فعلا وأطلعته على تجربة الاحتلال الفرنسي للجزائر. وعلى الرغم من أن هذا المترجم الجزائري ربط الصلة مع حسن بن جام، ابن قاضي يولا (Yola)، فقد واجه بعض الخصوم من قادة جيش لاميدو الزبير نفسه. وبقي ابن مشقان في مركز يولا حوالي سنتين، أي حتى سنة 1895. ونجح في تلك الفترة في توقيع معاهدة لصالح الفرنسيين مع حاكم يولا المسلم، وكان أهل المنطقة (ناحية يولا) يعتقدون أنه فرنسي إلى أن أقسم لهم عشر مرات على المصحف أنه مسلم. ورجع ابن مشقان إلى الجزائر وفرنسا سنة 1895. وأثناء وجود ابن مشقان في الجزائر (سنة 1896) اختارته 'الجمعية الجغرافية للجزائر وشمال أفريقيا' عضوا فيها وطلبت منه تقديم مراسلات علمية عن رحلاته إلى أفريقيا. وكان الرئيس الشرفي لهذه الجمعية هو جول كامبون (Jules Cambon)، الحاكم العام للجزائر.

ورجع ابن مشقان إلى فرنسا رفقة الضابط جنّتل (Gentel)، وتولى الترجمة عن وفد سلطنة باجيرمي (تشاد) ودار الكنتي التي كانت (دار الكنتي) تحت حكم محمد السنوسي. وعاد في السنة نفسها إلى الجزائر مرهقا ومريضا، وكان يطمح أن يحصل على ترقية ومنصب في إدارة الاحتلال بعد أن قضى ثماني سنوات في خدمة فرنسا. ولكن أمّله خاب

لأنّ الفرنسيين، كما حدث مع غيره من المترجمين غير الفرنسيين، لا يعترفون بالجميل بالنسبة للمترجمين الجزائريين، بل لم يعترفوا بحقوقهم فكانوا يصنفونهم في درجة مترجم مساعد أو مترجم احتياطي، وأعدوهم عملاء أجراء. ومع ذلك فإنّ هذا المترجم كان له في ذمة فرنسا ثلاث سنوات من راتبه، ولم يحصل إلا على أجرة سنة 1895. والراجح أنّ ابن مشقان قد توفي سنة 1899¹. ولا شك أنّ هذا المترجم قد ترك بصمة على تاريخ منطقة يولا، وقد أثار الاندهاش لأنه كان مسلما لكنه كان مخلصا لقضية تخص الفرنسيين وليس قضية بلاده ولا قضية المنطقة (المسلمة) التي عمل بها.

وسافر جنتيل إلى ناحية البورنو سنة 1896 رفقة المترجم رجم الذي جنده الفرنسيون لبعثة هذا الضابط التي اتجهت إلى باجيرمي ناحية تشاد. ويبدو أنّ هذا المترجم قد اتهم بالتدخل في الشؤون السياسية المحلية، ثمّ التحق بنشاط الطريقة السنوسية، إذ زار زاويتها في بئر علالي، أو هرب إليها (حسب بعض المصادر)، ولكن الفرنسيين لحقوا به وقبضوا عليه. ولم تذكر المصادر مصيره بعد ذلك. وكان رجم ينتمي إلى عائلة شهيرة بقسنطينة قد تكون من أصول عثمانية. وقد حاز على شهادة الباكلوريا في الآداب والعلوم، وكان يحسن اللغتين العربية والفرنسية. وقد تقلّب في الوظائف المخصصة للمترجمين الجزائريين.

والتحق أحمد بن مشقان (المذكور آنفا) بهذه البعثة في فبراير سنة 1897، وساعد جنتيل على توقيع معاهدة مع سلطان باجيرمي وأخرى مع السنوسي في دار الكونتي².

كما شارك مترجمون جزائريون في بعثات فرنسية أخرى، منها بعثة مينار (Menard) التي اتجهت نحو ساحل العاج سنة 1890، خلافا للبعثات الأخرى التي كانت تقصد بورنو وبحيرة تشاد. وكان المترجم فيها هو عبد القادر بن عبد القادر من بوسعادة الذي أصيب بإسهال أثناء البعثة (أكتوبر سنة 1891) وتوفي على إثره³. كما أنّ مينار نفسه قتلته القوات السامورية بسيفيلا في فبراير من السنة التالية. ويبدو أنّ

1 CHRISTELOW, Algerian Interpreters, op. cit., pp. 101-104.

أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج5، صص. 52-53.

2 CHRISTELOW, Algerian Interpreters, op. cit., pp. 104-105.

أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج5، صص. 53.

3 ذكر أبو القاسم سعد الله اسمه في مكان آخر هكذا عبد القادر بن الحاج البوسعادي، ينظر:

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص. 166.

عبد القادر هذا قد تخرج من مدرسة الجزائر الرسمية بعد إجراء الإصلاح عليها سنة 1880 وإدخال اللغة الفرنسية في برنامجها. وكان موظفا في السلك القضائي عندما جنده قادة الاحتلال مترجما في هذه البعثة ويبدو أنه كان عارفا بالفقه الإسلامي مما جعله مؤهلا لتلك المهمة¹.

وشارك مترجم يدعى حسن في بعثة بریتوني سنة 1898 التي وصلت إلى تشاد فهاجمتها قوات رايح، حاكم باجيرمي، وأفتنتها عن آخرها، ماعدا ثلاثة جنود من فرقة الرماة. ومن الراجح أن حسن من تيزي وزو، ربما يكون مثل زميله ابن مشقان من خريجي الزوايا والمدارس الفرنسية قبل أن يغدو مترجما بلديا. كما شارك في البعثة نفسها مترجم آخر اسمه شبكة، لم تذكر المصادر أية معلومات أخرى عنه².

وقد أرسل الفرنسيون محمد الطيب بن إبراهيم، مقدم الطريقة القادرية في الرويسات (ورقلة)، سنة 1898 إلى غدامس وغات بحثا عن قتلة الماركيز دي موريس (Marquis de Morès) الذي قام ببعثة نحو غدامس، لكنه قُتل في الوطنية التحتانية، على بعد ستين كيلومترا شمال غدامس سنة 1896، ويبدو أن شهرته بلغت شهرة فلاترز. وتمكن محمد الطيب من القتلة وسلمهم للفرنسيين لمحاكمتهم. ومن جهة أخرى فقد ترك مخطوطا صغيرا وصف فيه مراحل رحلته من ورقلة إلى غدامس وغات³.

وقد انفرد مترجم جزائري بقيادة بعثة بنفسه، وهو مسعود الجباري الذي أثار ضجة في أواخر القرن التاسع عشر، إذ كان ظهوره قد صادف اهتمام الفرنسيين بالصحراء وعبورها إلى أفريقيا حيث السودان القديم. ونظرا لمؤهلاته جندته "الجمعية الجغرافية الفرنسية" في باريس للقيام بمهمة بأفريقيا سنة 1892، فتوجه إلى هناك متكررا في لباس خطاط الرمل وكانتب الحروز. وتجوّل الجباري في أفريقيا وبقي هناك حوالي سنتين بين لاقوس (نيجيريا) وأعالي النيجر، وادعى أنه جمع معلومات حيوية للجمعية وطالبها بدفع تكاليف أدلائه الأفريقيين ولكنها رفضت ذلك. وقيل إنه مرض وحاول الانتحار، وقضى أسابيع

1 أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج5، صص. 60-61. نقلا عن:

A.S.KANYA-FORSTNER, The Role of Algerian Agents and Interpreters, Paideuma, n°40, USA, 1994, pp. 32-33.

2 أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج5، ص. 53.

3 أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، ج5، صص. 71-72.

في أحد المستشفيات يتداوى من جروحه قبل رجوعه إلى تونس (مايو سنة 1894). وفي التقرير الذي كتبه ادعى للفرنسيين أنه أسس جمعية دينية سرية تمتد آثارها من السنغال إلى أثيوبيا، وأنه عثر على قبر المكتشف كرامبيل، وتعرّف على أربعة أوروبيين مسجونين عند التوارق من بينهم فلاترز. وألقى الجباري محاضرة في معهد قرطاج (تونس) أعلن فيها هذه الأخبار المثيرة، فصدّقه البعض وكذّبه آخرون.

وبعد أن ذهب إلى الجزائر توجه منها إلى باريس حيث ألقى محاضرات أمام آلاف المهتمين عن بعثته المثيرة وعن مشاهداته، فأثار الإعجاب. وكان الجباري صاحب قلم ولسان فصيحين، فأثار الجمهور الباريسي بمنطقة. وكتب مقالات في بعض الجرائد وقدم أحاديث إلى جرائد أخرى، وذلك في خريف سنة 1895.

واهتزت الحكومة العامة في الجزائر بسبب تلك الأنباء فأمر جول كامبون بفتح ملف للتحقيق في مسألة فلاترز. وعيّنت الجهات الفرنسية بعثة أخرى لكي تتحقق من معلوماته لاسيما فيما يخص فلاترز.

وأجرى الجباري مقابلة صحيفة في جريدة (لو جنرال Le Journal) وبعث برسالة إلى صحيفة (الأخبار) الصادرتين بالجزائر. ثم ألف كتابا صغيرا سماه 'الناجون من بعثة فلاترز'، ونشره في تونس سنة 1895. ولا يعرف إن كان الجباري قد كتب أو ترجم أعمالا أخرى، أو ترك مذكرات وملاحظات سواء عن أفريقيا أو عن حياته الخاصة. ولكنه كان على كلّ حال من فئة النخبة الحاملة للجنسية الفرنسية التي تعاطت الترجمة والخدمة العسكرية، ومع ذلك لا تعرف آرائه عن الاندماج والحضور الفرنسي في بلاده.

كان مسعود الجباري، مثل أحمد مشقان، من خريجي مدرسة ترشيح المعلمين ببوزريعة (مدينة الجزائر). وكان يمتاز بالذكاء وازدواجية اللغة والطموح. فقد ولد بنواحي عنابة، وبعد حصوله على الشهادة من هذه المدرسة وظّفه الفرنسيون في فرقة الخيالة (الصبايحية) وانتمى بعد ذلك إلى فرقة المترجمين العسكريين. ثم تولى الترجمة في ميدان القضاء منذ سنة 1887، وشارك في أعمال الترجمة بتونس بعد احتلالها. وحصل على الجنسية الفرنسية أيضا¹.

وقد وجدنا مترجما جزائريا آخر قتل بدونغاي (Dongai) قرب

1 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، مرجع سابق، ص164-166.

ينظر أيضا: أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، مرجع سابق، صص. 67-70.

طموكتو في حملة رفقة القائد العسكري بونيني (Bonnier) سنة 1894. وهو يدعى محمد بن الحاج العربي أكلوش الذي ولد في شرشال حوالي سنة 1855، وعمل مترجما منذ سنة 1876، وتدرج في مراتب المترجمين العسكريين. وهو ابن ضابط صف في جيش الاحتلال، وعمل مع أبيه، ففي المعهد العربي الفرنسي، ثم ثانوية الجزائر. والتحق بالمكاتب العربية في الجنوب الغربي للجزائر في السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر، وذهب إلى غويان (Guyane) سنة 1880، وقضى ثلاث سنوات في تونس (1891-1893)، ثم التحق بالسودان بعد ذلك¹.

وتوجه بعض المترجمين الجزائريين إلى مصر في نطاق الترجمة والبحث في خدمة المصالح الفرنسية. فقد أرسلت سلطات الاحتلال ولد قاضي، وهو ضابط جزائري، إلى مصر في مهمة، منها الإطلاع على وضعية الطلبة الجزائريين الذين كانوا يدرسون في الأزهر الشريف، وقد قدّم تقريرا حول ذلك سنة 1916. وأرسلته السلطات نفسها في السنة ذاتها إلى الشريف حسين زعيم الثورة العربية لتهنئته باسم فرنسا وتقديم العون له.

ورافق عبد القادر بن الحاج سعيد البعثة الفرنسية إلى مصر التي كان يقودها (بونيل دي ميزير) في آخر القرن التاسع عشر. وقارن عبد القادر بين نظام التعليم هناك والنظام السائد في الجزائر، أي قارن بين سياستي الإنكليز والفرنسيين في التعليم بالبلدين. ويعود أصل هذا المثقف إلى عائلة بني جلاب الذين كانوا يلقبون بسلطين تقرت. والراجح أنه تعلّم في مدرسة قسنطينة الرسمية، وشغل منصب معلم في مدرسة تقرت الفرنسية، ثم غدا قائدا لمدينة تماسين مقر الزاوية التجانية.

ونشر أيضا إلى الترجمان العلمي عlish الذي استعان به الصحفي الفرنسي جون ريمون، أثناء حرب طرابلس (1911-1912)، فقد اصطحب معه هذا المترجم الجزائري لأن ريمون كان لا يعرف اللغتين العربية والتركية. ولا نعلم هل كان عlish من العسكريين العاملين في جيش الاحتلال أو أنه كان مجرد مترجم حرّ أو عارف باللغتين العربية والفرنسية. وقد ألف ريمون كتابا عن تلك الحرب

Commandant PEYRONNET, Livre d'or des officiers des affaires indigènes: 1830-1930, t.2, Imprimerie Algérienne, Alger, 1930, pp.707-708 .1

ونشره في باريس سنة 1913¹.

لقد قام الجزائريون بجهود معتبرة في أفريقيا شملت عدة ميادين، خاصة الجانب الثقافي بما في ذلك الترجمة والتعليم، وربما القضاء أيضا، وقدّموا خبراتهم العلمية في الفقه واللغة والأنساب. ولكن هذه الجهود كانت تمتصها الأنشطة الاستشرافية وتوظفها لصالح الاحتلال الفرنسي.

خاتمة

يتضح مما تقدّم كيف أنّ الفرنسيين استفادوا من تجربتهم في الجزائر، فوظّفوا المترجمين في عدة مجالات في البلدان الأخرى التي احتلوها. وقد استخدموا في أول الأمر مترجمين يعملون داخل الجزائر في التجسس قبل القيام بالعمليات العسكرية، ثمّ وظّفوا بعضهم في مناصب ومراكز تابعة لإدارة الاحتلال. ثمّ قامت سلطات الاحتلال بتكوين المترجمين داخل البلدان المحتلة، مثل تونس والمغرب الأقصى. وتمتّع بعض المترجمين أيضا بدور متميز كدور ماشويل الذي أثّر في التعليم والبنية الاجتماعية للتونسيين. وقد رأينا كيف اقتصر الفرنسيون تقريبا على المترجمين الجزائريين في الاستكشافات جنوب الصحراء كي يتمكنوا من السيطرة التجارية والسياسية والعسكرية على تلك المناطق. ولم يكن هذا الاختيار عشوائيا، بل مدروسا بدقة، فاستفادت سلطات الاحتلال الفرنسي من مؤهلات المترجمين الجزائريين، خاصة من الجانبين اللساني (اللغة العربية) والعقدي (الدين الإسلامي)، ووظّفوا تلك المؤهلات في تضليل سكان تلك المناطق وعقدوا معهم المعاهدات والاتفاقات لأنّ أولئك السكان كانوا يتقنون في المترجمين الجزائريين بعد أن تيقنوا من إسلامهم. وكان الفرنسيون يريدون مخادعتهم بادعائهم أنّهم كانوا حلفاء للإسلام والمسلمين، وهي حيلة لم تتطلّ عليهم كما أنها لم تتطلّ على سكان الجنوب الجزائري قبل ذلك، إذ عبّروا عن ذلك بمقاومة بعثات التصير والاستكشافات، ففضوا على أغلب المغامرين الفرنسيين في

1 لقد رجعنا في هذه الدراسة على الخصوص إلى بحث قام به أبو القاسم سعد الله تحت عنوان 'المترجمون الجزائريون أثناء الاحتلال في أفريقيا'، ونقل هو بدوره الكثير من المعلومات عن مقالة لكانيد فورستر بعنوان 'دور العملاء والمترجمين الجزائريين'، ومقالة آلان كريستلو بعنوان 'المترجمون الجزائريون ومغامرة الاحتلال الفرنسي في المناطق الأفريقية المعادية للصحراء'. وقد أشرنا إلى كل مراجع في مكانه في ثانيا هذه الدراسة.

المصادر والمراجع

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج5، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.

E.ROUARD de CARD، Le Prince de Bismarck et l'Expansion de la France en Afrique، Pedone & Gamber، Paris، 1918.

Commandant PEYRONNET، Livre d'or des officiers des affaires indigènes: 1830-1930، t2، Imprimerie Algérienne، Alger، 1930.

Allan CHRISTELOW، Algerian Interpreters and the French Colonial Adventure in Sub- Saharan Africa، *THE MAGHREB REVIEW*، vol.10، 4- 6، 1985.

A.S.KANYA-FORSTNER، The Role of Algerian Agents and Interpreters، *Paideuma*، n°40، USA، 1994.